التقسيم الى نظرى وعملى :

العلوم كثيرة ، وشهوات الناس لها مختلفة . وهى تنقسم - مما تنقسم - إلى قسمين :

١ — قسم نظرى .

٢ — وقسم عملى .

فالنظرى هو الذى الغاية منه حصول الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى لا يتعلق وجودها بفعل الانسان .

وغايته الحق .

والمقصود منه إنما هو حصول رأى فقط . فأنت حينما تحاول إثبات الواجب وما يليق به . أو حينما تحاول إثبات الجواهر الروحانية ، أو حينما تبين ارتباطات الأمور الأرضية بالقوة السماوية إنما تقصد من وراء ذلك أن تحصل لنفسك على رأى توسع به أفق ثقافتك . وتسمى عُلوماً نظرية لأن المقصود منها تكميل القوة النظرية ، أو لأن النظريات فيها أكثر وأقوى من العملية .

والعلوم النظرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — قسم لا يفتقر فى الوجود الخارجى والتعقل إلى المادة وهو الآلهيات

٢ — وقسم يفتقر إلى المادة فى الوجود الخارجى دون التعقل وهو الرياضيات .

٣ — وقسم يفتقر إليها فى الوجود الخارجى والتعقل وهو الطبيعيات كالعلم بأحوال الأمور العامة للأجسام ، أو كالعلم بأحوال المعادن ، أو غير ذلك مما يبحث فيه هذا العلم الطبيعى .

والقسم العملى هو الذى ليس الغاية منه حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات بل المقصود منه إنما هو حصول رأى فى أمر يحصل بكسب الإنسان ليكتسب ماهو الخير منه . فلا يكون المقصود منه هو حصول رأى فقط كالنظرى بل المقصود هو حصول رأى لأجل عمل . وغاية هذا القسم العملى هو الخير .

وهذا القسم العملى ينقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام :

١ — علم بمصالح شخص بانفراده ليتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل وهو علم الأخلاق .

٢ — وعلم بمصالح جماعة متشاركة فى المنزل ويسمى علم تدبير المنزل .

٣ — وعلم بمصالح جماعة متشاركة فى المدينة وهو علم السياسة .

وعلم الأخلاق كما يقول « أرسطو طاليس » يتضمن هذه الثلاثة .

وبعد : فهل علم الأخلاق ينتسب إلى القسم العملى فحسب . أو أنه ينتسب إلى العملى من ناحية وإلى النظرى من ناحية أخرى ؟

عرفنا أن غاية القسم النظرى الحق ، وغاية العملى الخير . ولما كان علم الأخلاق يبحث فى الحق كما يبحث فى الخير . كان له نسب إليهما معاً . فهو علم نظرى حينما يبحث الحق ، وهو علم عملى حينما يوجهك إلى الخير .

وعلم الأخلاق يجمع بموضوعاته بين اللذة والفائدة : اللذة حين يُفسر لك معنى الإنسان ، والفائدة حين يهديك إلى سواء السبيل .

إنه حين يفسر لك معنى الإنسان فيحدثك مثلا عن القانون الذى هو فى ضميرك يناجى عقلك ، ويقول لك : « إن هذا القانون هو المبدأ الاسمى وفوق الإنسان » ، وحين يحدثك عن الإرادة الحرة التى تنفذ هذا القانون

أو تخالفه ويقول لك : « إن هذه هى المبدأ الإنسانى والنابع » إنه حين يحدثك عن هذين المبدأين . ويقول لك : « هما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه » إنما يحدثك عن الحق .

وإنه يهديك إلى سواء السبيل حين يقول لك « إن قانون الأخلاق الذى لا يحرمك من الثروة التى هى ثمرة عادية تستحقها بعملك ، والذى لا يحرمك من اللذة وهى حاجة طبيعية لك ، والذى لا يحرمك من السعادة التى هى رائد جميع مجهوداتك . إنه يهديك حين يقول لك : « يجب عليك فى بعض الحالات أن تضحى للخير بكل هذا : بالثروة ، وباللذة ، وبالسعادة ، بل بالحياة ذاتها .

فما ينبغى أن تضيع الحياه ابتغاء لوسائل الحياة ، فالحياة عدل وكرامة « وقيمة الكرامة أغلى من قيمة الحياة » .

إن علم الأخلاق علم نظرى من ناحية عملى من ناحية أخرى : نظرى حين يحدثك مثلا عن الضمير فيقول لك : إنك تحمل فى نفسك قانوناً محكمة بوجه ما تحكم ببراءتك ، أو بأدانتك بحسب الأحوال ، ولها من القوة التنفيذية إما الرضا الجميل بأنك عملت خيراً ، وإما الندم ووخز الضمير على كونك عملت شراً .

وإنه علم نظرى حين يحدثك عن هذه القوة وعن أنها ليست من وضعك أيها الإنسان ما دمت غير قادر على تغييرها على رغم وحى المنافع وعمايات الشهوات .

إنه علم نظرى حينما يحدثك عن هذه الهبة الإلاهية المعجزة المخيفة التى

هى أنت أنت والتى هى شخصك والتى يترتب على قدر ماتُحْسن ، أوتسىء فى استعمالها سعادتك أو شقاوتك علوك ، أو سقوطك

هذه الهبة المعجزة المخيفة هى إرادتك ، وإرادتك الحرة التى تستطيع دائماً أن تقرر ما يعجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعه .

إنه علم نظرى حين يحدثك عن هذا وعن غير هذا من مسائل علم الأخلاق التى غايتها الحق ، والمقصود منها إنما هو حصول رأى فقط .

وإنه علم عملى حين يطلب منك أن تضبط سيرك على مقتضى قواعده ومقاييسه ، وأن تنقح طبائعك ، وتخلصها مما يفسدها ويحطها عن مرتبة الإنسانية .

وإذا كان علم الأخلاق علماً نظرياً حين يطلب منك أن تدرس ، فإنه علم عملى حين يطلب منك أن تعمل لخير نفسك ووطنك والناس أجمعين .

وعلى ذلك فهو علم من جهة معرفة القواعد وفَنٌّ من جهة تطبيقها .

وإذا كنت تعلم أنه لا يكفى لأجل أن تقود سيارة ، أو تركب بحرا أن تحفظ كتاباً أو كتباً فى كيف تقود السيارة أو تركب البحر ، بل لابد مع ذلك من التمرين العملى على القيادة والسباحة ، وإلا صدمت الناس بسيارتك وغرقت فى لجج الماء .

إذا كنت تعلم ذلك فلا يكفى أبدا أن تحفظ ألف كتاب وكتاب فى علم الأخلاق لتكون على خلق عظيم بل لا بد مع ذلك من رياضة نفسك على الفضيلة حتى تكون لها صديقاً ، وبعهدها وفيا . فالفضيلة عملية محلها النفس

التى تصدر عنها الأفعال لا الفم التى تصدر منه الأقوال .

إن علم الأخلاق من جهة أنه فن فالإجماع منعقد على فائدته ، ومن جهة أنه علم فهناك بعض الشك فى فائدته . ومهما يكن من شك فى فائدة علم الأخلاق فقد كان « أرسطو » أحد أساتذته الأكرمين يعلم الاسكندر هذا العلم مدروساً فى « التقاليد الاجتماعية وفى الطبع الإنسانى » .

وإذا كان علم الأخلاق ضروريا للعقل البشرى فإن شفاء الجمعية الإنسانية من أمراضها النفسية أنبل أغراضه .

الغاية من علم الأخلاق :

الغاية والفائدة والمنفعة بمعنى واحد . فهل هناك من غاية ، أو فائدة ، أو منفعة ترجى من علم الأخلاق ؟

تتحقق الغاية من علم الأخلاق إذا كانت الأخلاق قابلة للتبديل والتغيير . فهل تتغير الأخلاق ، أو لا تتغير ؟ وإذا كانت تتغير فما هو الطريق إلى تغييرها ؟ أهو العلم أم هو شيء آخر غير العلم ؟

خلاف فى هذه المسألة . قوم يقولون : إن الخلق لا يتغير غير أنه يجب المداركة قبل تمكنه من صاحبه . وحجتهم فى ذلك أن الأخلاق تابعة للمزاج والمزاج لا يتغير ، وأن السيرة تقابل الصورة وهى لا تتغير فكذلك السيرة . أى أنهم يستدلون على أن الخلق لا يتغير بدليلين اثنين :

١ — إن الخُلُق صورة الباطن كما أن الخَلْق صورة الظاهر ، والخلقة الظاهرة لا يُقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح الباطن يجرى هذا المجرى .

٢ — والثانى أنهم قالوا : حسن الخلق يكون بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمى ، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة .

هكذا يقول الغزالى فى تلخيص حجج الذين يقولون : إن الأخلاق لا تتغير

وآخرون يقولون: بأنها تتغير. وعلى ذلك تتحقق الفائدة من علم الأخلاق.

وزعيم القائلين بهذا الرأى الأخير « سقراط » مؤسس علم الأخلاق فكان يعتقد أن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد، وأن العلم منبع الخير وأس الصلاح، وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان، فإذا عمل الإنسان الشر، فما ذاك إلا لأنه يجهل طريق الخير، فالعالِم — فى عرف سقراط — يستحيل أن يكون سيء الأخلاق ردىء الطباع. فالفضيلة فى نظره هى العلم، ومعرفة الخير كافية لإتيانه.

وعلى ذلك فما يقع الإنسان فيه من الإثم إنما يكون ناشئاً عن خطأ فى الموازنة بين اللذة الحاضرة وبين الآلام المستقبلة، أو يكون ناشئاً عن جهل بطبائع الأشياء.

هكذا يقرر « سقراط » واضع علم الأخلاق. فالأخلاق عنده تتغير والطريق إلى تغييرها هو العلم: طريقُ الدليل القاطع والحجة الدامغة.

والمبدأ الأول الذى يقرره سقراط — وقد أيده بالمثل الفعلى فى عدم هروبه من السجن — « هو أنه لا ينبغى البتة إتيان الشر بأية حجة كانت » ومما يؤثر عنه فى وصف الرجل الذى يتمسك بالفضيلة أبداً قوله: « لو أن لساناً صادقاً أمر جبلا أن يزول لزال ».

ويرى أنه متى كسبت النفسُ السيئة بعامل الجهل أو الضعف فأول ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذى أصابها، والذى يمكن أن تشفى منه.

وعلاج الخطيئة إنما هو العقاب. فلا ينبغى للمذنب أن يتذمر من

العقاب يصيبه إما بيد الله أو بيد الناس . بل يجب عليه أن يغتبط بالبلاء الذى يكفر عنه سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما .

إنه يقول : إن العقاب ضرب من العلب المعنوى ، وشأن المذنب الذى يحاول اتقاءه شأن المريض الذى قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذى يعيد إليه الصحة بالحديد والنار .

وليس هنا مكان الاسترسال فى مناقشة هذه المبادىء فإنما قد أتينا بها لاستثارة الطالب بمبادىء سقراط فى الأخلاق بمناسبة عرض مذهبه فى أن الأخلاق تتغير . والطريق إلى تغييرها هو العلم .

ويتابع «سقراط» على هذا الرأى «هربارت الألمانى»[1] فإنه ينادى بأن التعليم وحده كفيل بتهذيب الأمة وتربيتها ، وكان يقول : « الغاية القصوى من التعليم إنما هى اكتساب الفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق » .

و « هربارت » هذا لا يقول مطلقاً بالاستعداد الفطرى بل يقول : « إن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » .

وعلى هذا تكون القوة المسيطرة على هذا العالم المثيرة لحوادثه هى العقل ، فإذا أردنا أن نهذب النفوس ونحسن الأخلاق فطريق ذلك هو العلم والعلم وحده .

---

١ — هو « جان فردريك هربارت الألمانى » (١٧٧٢ - ١٨٤١) ولد فى مدينة (إلدمبورج) . خلفَ (كانت) فى كلية (كونجسبرغ) إثر وفاته . قال لتلاميذه فى أول درس ألقاه عليهم : « إنى لسعيد بأن أخلف أكبر فيلسوف فى العالم فى دروسه ولن يقلل من احترامى له وإعجابى به أنى أخالفه فى الرأى والمذهب »

ومن يقول بذلك أيضاً : « ليبنز » الالمانى فقد كان يقول : « سلّمنى زمام التربية والتعليم وأنا كفيل بأن أغير وجه أوربا قبل قرن من الزمان »

ولكن قامت طائفة من العلماء وثارت على هذا الرأى - رأى سقراط ومن تبعه - وأنكرت تأثير العلم فيما يصدر عن الإنسان من الأعمال ، فقال الفيلسوف الفرنسى « بسكال [1] » : « إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق » يريد أن يقول : إن المثل الأعلى للأخلاق العظيمة فى واد ، وعلم الأخلاق الموضوع فى واد آخر .

ثم جاء من بعده رجل قوى الحجة هو الفيلسوف الانجليزى « هربارت سبنسر [2] » فأنكر على العلم كل سلطة تهذيبية وكل تأثير فى إصلاح النفوس ونادى أن لا علاقة بين العلم والأخلاق وقال : « إن تحمس العلماء والخلقيين وتعصبهم للعلم ونشر التعليم بين طبقات الأمة ابتغاء إصلاح أخلاقها من وراء القراءة والكتب والمدارس لهو بدعة من بدع هذا الجيل وسخافة من سخافات أهل هذا العصر .

وكان يقول : « كيف يرجى من العلم تهذيب الاخلاق وإصلاح النفوس بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم واتسعت مداركهم أفراداً لا خلاق لهم ، ووعاظاً يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم وسياسيين عظماء

---

(١) — (١٦٢٣ — ١٦٦٢)

(٢) — (١٨٢٠ — ١٩٠٣) كان والده مدرساً وعمه قسيساً اهتم منذ صغره بالعلوم الطبيعية والمسائل السياسية مفضلا إياها على دراسة اللغات البائدة فلسفته تدور حول نظرية النشوء والارتقاء .

قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة يعملون على خراب الدنيا وإلحاق أكبر الشرور بالنوع الإنسانى ، وأطباء من أكبر العلماء يدسون السم لمرضاهم ؟!! فما أغنى العلم ولا نهى التعليم » .

ثم يقول : « وبجانب هؤلاء نجد من الجهلاء والأميين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف وعلو الهمة .

ويستخبر « سبنسر » من الخلقيين الذين يعتمدون فى إثبات قوة العلم التهذيبية على الإحصاءات الدالة على متانة الإتصال والارتباط بين الجهل والاجرام وأنهما متلازمان تلازم العلة والمعلول والسبب والمسبب .

ويقول : « إن مثل من يقدم هذا برهاناً على تأثير العلم فى الأخلاق كمثل من يقول : إن السبب فى ارتكاب الجرائم عدم نظافة الجسم ورثاثة الملبس لأن السجون ملأى بهؤلاء » .

وإذا كان « هربارت » الألمانى الذى ينادى بالصلة بين العلم والأخلاق لا يقول مطلقا بالاستعداد الفطرى بل يقول :

« إن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » فأن « هربارت » الانجليزى الذى ينادى بقطع الصلة بين العلم والأخلاق يبنى رأيه هذا على نظريته فى الوراثة ، ومضمونها :

« أن كل عادة متى تقوت تصبح طبيعة . أعنى أنها تتغلغل فى تكوين الإنسان وتصير آلية تتحرك من تلقاء ذاتها ، وهذه الاستعدادات العضوية تنتقل بالوراثة بمعنى أننا حال ولادتنا توجد فينا اختبارات الأجيال التى سبقتنا ، فالوراثة - فى نظر « سبنسر » هى أصل المعارف العامة الضرورية

فهى عامة لأن الإنسان لا يمكنه أن يفلت من أن يرث بنى نوعه ، وهى ضرورية لأن الميراث محتم على الفرد كشىء واقع [1] .

وما دام الميراث محتما على الفرد كشىء واقع فمعنى هذا أن الناس يولدون ومعهم عاداتهم يرثونها عن آبائهم فترافقهم كشبح مظلم ، أو غير مظلم طوال حياتهم حتى القبر نفسه .

ولعل هذا هو الذى دفع « مكسيم جوركى » [2] إلى أن يقول - فى كتابه « الأم » - : « فى طفولتى كنت أخاف من جميع الناس ، ثم عند ما شببت كنت أكرههم جميعا ، أبغض البعض لدنائتهم ، والآخرين دون أن أدرى لماذا ؟ هكذا لمجرد البغض . أما الآن فكل شىء يبدو لى غير ما كان عليه . لعل السبب فى ذلك أنى أشفق على الناس . لقد رق قلبى نوعا عند ما تحققت أن الناس جميعا ليسوا مسئولين عن حقارتهم ودنائتهم »

ليسوا مسئولين عن حقارتهم ودنائتهم . لماذا ؟ لأنهم ليس لهم فى ذلك اختيار ما دام الميراث محتما عل الفرد كشىء واقع .

وهذا المبدأ ، أو هذا الرأى خطر على الأديان ، وعلى الشرائع يهدمها كلها رأساً على عقب . ينفى حكمة إرسال الرسل ويترك الناس هملا تستعبدهم الوراثة ، وتستذلهم الشهوات .

حقاً إنك لتعجب من واقع الأمر على مسرح هذه الحياة . فكم من

---

(١) تاريخ الفلسفة لحنا أسعد ص ٣٤٢ ، ٣٤٣

(٢) أفضـــل وريث للادب الروسى فى القرن التاسع عشر .

العلماء يبغض بعضهم بعضاً ، ويعيشون جميعاً فى الطمع ، والحسد ، والغيرة ، ويتهجون عندما ينال بعضهم الأذى ، فاذا أخذت تكشف عن حقيقتهم الحق وفى سبيل الحق اتهموك ، وأبغضوك ، ودمروك .

وكم من جاهل لا يعرف من العلم ولا عن العلم شيئاً يشعر بالقرابة الروحية مع أخيه الإنسان فتراه يعطف عليه ، ويساعده فى الشدائد ، ويواسيه فى الملمات . وتراه فى سلوكه لايعرف إلا الحق والعدل ، بل تراه يضحى بماله ، ولذته ، وسعادته للخير ، وفى سبيل الخير .

حقا إنك لتعجب من هذا الذى تراه كأن شيئاً أقوى من العلم ومن الفلسفة يختبىء وراء هذه القلوب فيثير فيها إحساساً صاعداً يستحق من رسل الإنسانية كل إعجاب وتقدير لهؤلاء الذين يزرعون الحقيقة بين الناس وهم بعد لم يعلموا من علم الناس شيئاً لا فى قليل ولا فى كثير .

وكأن شيئاً أقوى من العلم ومن الفلسفة يختبىء وراء تلك العقول العالمة فيثير فيها إحساساً نازلا يستحق من رسل الإنسانية كل مقت وكل طرد لقوم يضاعفون من ذعر الناس ومن خوف الناس فى هذه الحياة ، وهم حرب على السلام فى هذا العالم .

ولكن مع ذلك فان المسألة كما ينبغى أن تفهمها هى أن الأخلاق تتغير وأن الفضيلة ميسورة للذى يجمع بين عقل مستنير وشهوات هادئة . وإلا لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال كتابنا العزيز : «وذكر فأن الذكرى تنفع المؤمنين» ولما قال صلوات الله عليه : «حسنوا أخلاقكم» .

وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى — كما يقول الغزالى — وتغيير خلق

البهيمة ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شر الأكل إلى التأدب ، والإمساك ، والتخليه . والفرس من الجماح إلى السلامة والانقياد . وكل ذلك تغيير للأخلاق .

وإذا كان « سبنسر » يقطع الصلة بين العلم والأخلاق فما الطريق عنده لتهذيب النفس وتحسين الأخلاق ؟

الطريق عنده هو تربية الوجدان والميول لأن الناس فى أعمالهم — عنده — يحكمون عواطفهم ، وينقادون لأهوائهم دون أن يستشيروا حكمتهم ، ويصغوا إلى نداء عقولهم .

وهذا هو أيضاً رأى الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » إذ كان يقول : « العالم تحكمه العواطف لا الأفكار » .

وليس معنى أن يقطع « سبنسر » ومن يرى رأيه الصلة بين العلم والأخلاق أنه ينكر أثر العلم فى إضاءة الأذهان وتنمية العقول . إنما المعنى أنهم يقولون : « ابحثوا عن طرق أخرى غير طريق العلم للقيام بتهذيب الأخلاق » .

وعلى كلٍّ فليس علم الأخلاق أكثر عقما من سائر العلوم الأخرى